(١٢)

المفترى عليهما

ريا وسكينة

هذه ليست ريا ولا تلك سكينة كما عرفناهما من قبل، ليست هذه (ريا وسكينة) كما عرفناهما من الفيلم الذى قدمه لنا صلاح أبو سيف تحت هذا العنوان فى الستينات.

كما أنها ليست ريا وسكينة كما قدمها لنا المخرج حسين كمال فى المسرحية التى حملت نفس العنوان (ريا وسكينة) فى الثمانينات فشغلت المحيط العربى والغربى، فأضاف حسين كمال إلى الخط المأساوى الرهيب – كما فعل أبو سيف – خطًا هزليًا آخر، اختلط فيه التراجيدى مع الكوميدى فى إطار موشى بالاستعراضات الصارخة والإفيهات التى تخفى الواقع وتظهر الفانتازى الغريب القائم على العبث..

كان نجيب الريحانى وبديع خيرى كتبا ميلودراما عام ١٩٢٢ عن «ريا وسكينة» مثلت على المسرح وقام الريحانى بها بتجسيد دور(زوج سكينة).

نقول ليست هذه ريا أو سكينة كما عرفها الوجدان الشعبى بعد مرور حقبة بعيدة على وجودها (قبض عليهما فى الإسكندرية عام ١٩٢١)..

لنبعد عن كتاب السناريو ونسأل:

إذن، فمن أين جاءت هاتان المرأتان؟

الإجابة عن هذا السؤال تفرض علينا أن نخرج من (كل) تصوراتنا السابقة التى عرفناها عن ريا وسكينة، ونحاول التعرف من جديد إلى تصورات جديدة وحكاية أخرى؟

ولا يعنى ذلك أننا سنحاول – فى سبيل الوصول لصورة ريا وسكينة – التعرف إلى مراحل هذه (المجزرة) التى ارتكبها هؤلاء، أو مراحل الكشف عنهما من البوليس المصرى والتحقيق فيما ارتكباه، فإن ذلك كله موجود فى ملفات القضاء المصرى خاصة فى هاتين السنتين الهامتين (١٩١٩ – ١٩٢٠)، وهى تحت إمرة من يريد التعرف إلى هذه المراحل، إن المجزرة – مجزرة النساء – لا تهمنا.

ولا حتى القصة التى انتهت بالكشف عن المرأتين..

وإنمـا كل ما يهمنا هو الظـروف التى صنعت هذا الصنف من النسـاء فى مجتمعنا المصرى، وراحت تصيغ ردود الأفعال لديهما بهذا الشـكل.. كيف نسـتطيع تفسير هذا السلوك الإجرامى عند المرأة المصرية؟

وبشكل آخر:

ما هى علاقة المجتمع بالنساء؟

ما هو سـبب الانحراف فى شـخصية المرأة فى عالم كعالمنا الثالث (هل هو ثالث حقًا فقط؟) مـازال الجنـس الثانى فيه يعانى من العنت ما تعانيه الأقليات؟ و فى وقت ما تزال فيه النسـاء – صنف كبير من النساء – ينصرفن عما تعانيه بنات جنسهن، ويغرقن فى الرفاهية ويبحثن عن المتع الصغيرة لإرجاء وقت الفراغ؟

إن السلوك الإجرامى عند المرأة يمكن أن يقربنا من كل هذه الأسئلة للتعرف إليها..؟

فلنتمهل أكثرقبل أن نصل إلى مجتمع ريا وسكينة..

وراء السلوك الإجرامى :

الدراسات العلمية تؤكد لنا أن الجريمة النسائية بمعناها الحقيقى هى البغاء، فهى تحل محل جرائم أخرى كثيرة، أو تنوب عنها، وقد تجمع المرأة – وهو ما نجده لدى ريا وسـكينة بوجه خاص – بين البغاء والقتل.

ويتحـدد السـلوك الإجرامى فى المجتمع المصـرى أكثر حين تبرز فى المقدمـة جناية القتل لدى المـرأة، وهو يتخذ شـكلاً محددًا، حين تسـتعين النسـاء فى حالات كثـيرة بالرجال فى ارتكاب القتل..

فالمعـروف أن تكويـن المرأة الفسـيولوجى لا يسـمح لها بارتـكاب هذه الجريمـة أو الإقدام عليها وحدها..

وحين نعود للظروف التى كانت تتم فيها الجريمة، نكتشـف أن ريا وسـكينة كانتا ترتكبان الجرائم من خلال الرجال أو تحت تأثيرهم سواء بسواء، ونحن نعرف أن شركاءهما فى الجريمة رجال أشداء من أمثال عبد العال وحسب الله وعرابى وعبد الرازق..

فالمرأة هنا مستطيعة بغيرها وليست بمفردها فقط.

إن ريا وسكينة سواء استخدمتا الرجال لإنجاز ما يريدان من جرائم، وتوسلتا بهم للوصول إلى ما يريدان بما يقلل عنهما تهمة الجريمة بشـكل مفرد، أو بشـكل بشـع تكثف فيه دوافع القتل على إنها لدى النساء الشريرات اللائى هن – بنوعيتهما – شريرات، فيقدمان على أنهما مثالان صارخان لشرور المرأة وألاعيبها..

وهنا نقترب أكثر فأكثر من الظروف التى تهيئ للمرأة فعل الجريمة والانغماس فيها.

إننا لا نتوقف عند البغاء فقط ولا الوقوع تحت تأثير الرجل ومن ثم محاولة استخدامه، وإنما تتوالى منظومة المجتمع بآفاتها المعروفة: التنشئة الاجتماعية الفاشلة، الفقر المدقع، الظروف البيئية السيئة، الشعور بالنقص فى مجتمع يزخر بنماذج ثرية.. إلى غير ذلك.

هذه كلها بواعث وراء السلوك الإجرامى نستطيع أن نقترب منها أكثر حين نقترب من أرض الواقع.. واقع ريا وسكينة.

(بنات الليل) :

منذ البداية نسأل :

من أين جاءت ريا وسكينة؟.

جاءتا من بلدة صغيرة من الصعيد تسمى (الكلح) يغلب عليها الفقر الشديد والبؤس الذى عرفت فيه مناطق كثيرة من الوجه القبلى، عرف كل منهما الفقر فى سنواته الأولى، وعانتا الحاجة، سافرتا للهروب من هذا الواقع إلى بنى سويف، فكفر الزيات، تنقلتا، عملت سكينة لفترة ليست بالقصيرة فى علب الليل المنتشرة بشكل رسمى فى القطر المصرى حينئذ، واقترفت الأخرى أعمالاً لا تقل بشاعة عن ذلك.

نستطيع القول – باطمئنان–: إن بنية المجتمع المختلة وراء التصرفات الأولى التى مضت بريا وسكينة إلى درب الجريمة..

كانتا لا تجدان ما يسد الرمق ويصنع الحياة الشريفة

احترفتا الجريمة الكاملة (البغاء) تحت ضغط المجتمع

عرفتا رجالاً مجرمين وأقوياء، ارتكبتا الجريمة تحت تأثيرهم

لم تجدا ما يعصمهما من هذا المصير، فى حين رأى الكثير من النساء الأخريات اللائى كن – على النقيض – يعشن حياة الثراء الكامل، على رغم أن حياة الكثيرات منهن لا تخلو من الريبة، كانت ريا – على سبيل المثال – تعلن عن جرح حاد يكاد يودى بساقها، فى حين كانت ترى زنوبة – إحدى الجارات – ترتدى القطيفة، وفى يدها – كما تقول سكينة، فيما بعد – تسع غوايش فضة بيضة، وفى ودنها حلق ذهب خالص، وفى صدرها لبة وفى رجلها خلخال..

كانت ريا ترى هذه المرأة التى لا تبخل الحياة عليها بشىء، ومع ذلك، فهى تراها ترتكب العهر، وتقبل عليه بضمير مستريح..

بل إن إحدى أولئك النسوة الثريات – وهو ما كان يثير غضب سكينة أو ريا أكثر – كن يعشن (كصديقات) فى بيوت الإنجليز..

ثمن السكوت :

تجمعت الظروف الاجتماعية السيئة لتسهم فى صنع مأساة الأختين.. كان الوقوع فى أسر الرجال الأشداء سببًا آخر يؤكد هذا المصير.. حين ذهبت سكينة لزيارة أختها فى أحد الأيام، اكتشفت أن الرجال الآخرين مع أختها قاموا بقتل إحدى النساء، وحصلوا منها - وهى نائمة فى نومتها الأخيرة - على الذهب والفضة وما إلى ذلك مما كانت تحمله، وحين جفلت، قال لها الرجال:

- إن اتكلمت نعمل فيك زيها

ولا حد يشوفك؟

كانت تعانى انكسار الروح فى مجتمع لا يرحم النساء، وانكسار الجسد حين كانت تمشى خطواتها ثقيلة من إثر إصابة ساقها بإصابة بليغة. سمعت خلال ذلك كله حسب الله وقد كان عنيفًا جائرًا يقول لها:

(خذى دول..)

وتكمل ريا أمام المحقق بعد القبض عليها والحكم بإعدامها:

فضلت أعالج رجلى بعد ما فتحها لى المزين تجهم عرابى فى وجهها (وقد كان فتوة حى اللبان) وطلب منها أن تأتى فى الغد، وحين ذهبت فى الغد لتجد جريمة أخرى، جفلت تحت الإحساس الطاغى بالرعب، وهو يهددها، ثم يضع فى كفها مبلغًا آخر ثمنا لسكوتها، وتكريسًا لموقف التوريط. قالت بانكسار هنا:

(رحت على المزين أغير على جرح رجلى..

ولم تكن سكينة إلا كأختها..

البيت (كرخانة) :

كانت ريا مثل سكينة، تعانى من المجتمع - مثل أغلب نساء مصر فى العشرينات من هذا القرن - انتقلت من كفر الزيات إلى الإسكندرية بحثًا عن العيش، ومن رصد خطوات ريا وتنقلاتها فى هذه المدينة، التى كانت حتى هذا الوقت أشبه إلى المدن الغربية، نلاحظ أن الفقر والحاجة لعبا دورًا رائدًا فى سلوك هذا الطريق، خاصة، وأنها لم تستطع - كامرأة - أن تصبح ندًا لزوجها - حسب الله - سواء فى قوته كرجل أم كأخلاقه كزوج.

كان حسب الله ينفق ما يحصل عليه من عمله على نفسه، وعلى (مزاجه)، ولا ينفق عليها قط، وحين اضطرت تحت وطأة الظروف أن تحول سكنها الفقير إلى بيت دعارة لتنفق على نفسها لم تجد مقاومة تذكر من زوجها.

وقد كان رضاء الزوج على أن يتحول البيت إلى (كرخانة) يرتبط دائمًا بحصوله على أى نقود من الزوجة، لم يمانع، ولم يعترض قط، تتذكر ريا ما كان يحدث قبل ساعات من إعدامها فتقول فى أسى:

(كان حسب الله يأخد الفلوس كلها، ولا يجيب لى حتى صيغة أو حتى جلابية لبنتى)

الأكثر من هذا، أنه حين عرف البوليس ما يجرى داخل هذا البيت، وراح يقبض على ريا والآخرين متلبسين، فإن زوجها لم يحرك ساكنا..

استدعاه البوليس، وأبلغه أن يجعل زوجته تكف عن ذلك، قال له حكمدار قسم اللبان:

- يا حسب الله كفايا كده

وحين عاد إلى البيت طلب من ريا نقودًا أكثر، وقبل أن يخرج قال لها فى همس:

- كفايا صياح يا ريا.. اشتغلى فى السر ..

كان حسب الله مثال الزوج الدنىء، على رغم أنه تزوج ريا بعد وفاة أخيه الذى كان زوجًا لها، فإن هذا الزواج تم بناء على ضغط الآخرين، وبعد أن تزوجها لم يهتم كثيرًا بها كزوجة، فقد كان الشرب والأطعمة والنساء هو كل ما يهمه فى هذا العالم، ومن هنا، فقد مارس معها أسلوب التشجيع على الدعارة ليحصل على ما يريد، وفى الوقت نفسه راح يهددها بحكم قوامته فى مجتمع (ذكورى) تكون الكلمة الأخيرة فيه للرجل، خاصة وأن هذا المجتمع كان ما يزال فى فترة تحولات حادة تعانى فيها من ربقة المستعمر وعسف الفقر والجهل..

كان من السهل على من يراقب حياة ريا وسكينة أن يدرك أنهما، وإن مارستا الجريمة الكبرى - الدعارة - فإنهما ارتكبتا جرائمهما الأخرى - قتل النساء - (مع) وتحت نير الرجال، لم يكن ليملكا - لو أرادا - الرفض، إن سكينة حين تعتب على أختها فى إحدى المرات، ترد ريا بسرعة:

(- دول أربعة رجالة يا ختى.. هانعملوا معاهم إيه)

وهذا يشير إلى أمر واحد، هو، أنه وإن كانت دوافع الإجرام تفسر فى المجمع بشدة وطأة الفقر والحاجة، فإنها تفسر - كذلك - من طبيعة وضع المرأة الشرقية بالنسبة إلى الرجل..

وهو وضع كان فى البدايات من هذا القرن - فى مصر - يمثل الأدنى، ومن ثم، التابع دائمًا.

ومن المفيد أن نقول هنا إن المرأة - فى مجتمع كهذا - ليست وحدها الضحية، وإنما الرجل أيضًا، إن الرجل فى المجتمع الهامشى فى الإسكندرية فى عشرينات هذا القرن، كان يعانى من العيش فى مناطق فقيرة، يعشش فيها المرض، وتروج العادات القبيحة، وتخلو من الوعى الاجتماعى العادى..

وبذلك يمكن القول: إن طبيعة هذا المجتمع تؤدى إلى أن يفرز نساء شقيات ورجالا ضحايا، رجالا يعيشون على (أعمال الفعلة كما هو الحال عند حسب الله) أو على أعمال الدعارة (كما هو الحال عند العديد من النساء فى هذا الوقت)..

الأكثر من ذلك أننا نلاحظ أن ريا وسكينة وبقية رجال (العصابة) كانوا يمثلون طبيعة المجتمع الهامشى فى ذلك الوقت، فقد كانوا يمثلون، فى نهاية الأمر رمز الإنسان فى مجتمع شرقى متخلف تروج فيه الجرائم وتفرز فيه سمات وخصال اجتماعية رديئة..

كان من السهل أن تسمع أحد الرجال يقول فى السنوات التى سبقت القبض عليهم هذه العبارة:

– احنا معناش فلوس

وكان من السهل أن نسمع سكينة تقول كثيرًا:

– عملت فى أكثر من عمل شريف: أجرت حجرتى للصعايدة، وأحضرت ما بقى من اللحم الفاسد لبيعه، وفى موسم القطن، وفى قلى الطعمية.. لكن الزمن كان يدفع بى دائمًا للغلط وكان من السهل أن نسمع ريا تقول:

– كل اللى عايزاه أروح للمزين يغير على رجلى.. دى هاتروح منى.

وكان من السهل أن نتتبع خطى حسب الله لنعرف أنه كان يقضى الأيام الطويلة لا يجد عملاً (كان فاعلا)، وعبد العال يبحث عما يسد رمقه (كان من الشغالين) وعبد الرازق (عربجى) وسلامة (سماك).. كانت أعمالهم البسيطة لا تسعفهم كثيرًا للاستقرار وتحسين الوعى الاجتماعى بما يسهم فى ابتعادهم عن الجريمة..

أنا جدعة :

وربما كان ذلك وراء المواقف التى عبروا بها عن أنفسهم فى اللحظات الأخيرة قبل أن يهوى عشماوى على أعناقهم..

ماذا قالت ريا وسكينة فى اللحظات الأخيرة؟

اندهشت النيابة أن تقف فى قفص الاتهام قبل أن تذهب لحتفها، لتقول بأعلى صوتها:

– أنا جدعة؟

وحين اعترض البعض على هذه الجرأة راحت تضيف:

– الواحدة رايحة المشنقة خلونا نتكلم على كيفنا

كان هذا يعنى راحة نسبية للضمير الذى أحس، وربما لم يفارقه هذا الحس، أن صاحبه استطاع خداع (الحكومة)، فاستطاعت ريا القضاء على أولئك النساء اللائى كن عاهرات.. إن حسب الله يقول أمام غرفة الإعدام بوضوح وجرأة (نحن ما خسرنا غير العواهر).

أما ريا، فعلى رغم أنها كانت أقل شـجاعة من سـكينة، فقد كانت تقول وتكرر أن الجريمة الكاملة كانت صعبة، ولكن، ماذا أفعل و (دول أربعة رجالة علينا).

كانـت تريـد أن تقول بطريقتها – كما قالت شـقيقتها – إن المسـئولية فى النهاية ليسـت مسئولية المرأة، ولا – حتى – مسئولية الرجل الذى يدا الجلاد الأول لهما، وإنما هى مسئولية المجتمـع المتخلف، الذى مازالت القيـم الاجتماعية فيه متخلفة، والواقع يغلفه عدم الإنصاف، والارتجال..

وبعد، يبقى أن نشـير إلى نقطة أخيرة، أرجأناها حتى نهاية هذه السـطور لبداهتها، إننا لا نبرر لريا أو لسـكينة، ارتكاب الجرائم، ولا نحاول الدفاع عن أى منهما، وإنما حاولنا أن نعيد النظر فى تصورات قديمة، تحولت – على رغم خطئها وبشاعتها – إلى واقع، ونقصد بها تصور المرأة على أنها (شريرة) بطبيعتها..

أردنا – بوضوح – أن نفسر (حالة) ريا وسكينة

وهى حالة لا تهتم بالتفسير البيولوجى أو النفسى – كما يتردد دائمًا – وإنما هنا هى تعود إلى البنية الاجتماعية فى التحليل الأخير.. فالمجتمع – عندنا – هو المسئول عن السلوك الإجرامى عند الإنسان – رجلاً أو امرأة.

وتتحول ريا وسكينة إلى رمز لهذا الإنسان المفترى عليه :

فـى الأفلام العربية منذ فترة بعيدة، وفى الدراما المسـرحية الضاحكة، وبين الخيالات التى تمثل مكونا عميقا للذاكرة العربية.. وهو ما يدعنا نسأل حتى اليوم بدهشة :

ريا المفترى عليها..

وسكينة كمان ؟

المراجع

بلاغات وتحقيقات رسمية مع المتهمتين
- نص الحكم فى الاسكندرية - وتم تنفيذ الاعدام - دار المحفوظات
- ملف يسمبر سنة ١٩٢١- pdf ملف www.arablaws.org -
- مدونة التاريخ، انظـر أيضـا http://www.altareekh.com/vb/showthread.php?t=36107
دار المحفوظات - ملف pdf